٧ – إلى أرض النبوة !

للأستاذ على الطنطاوى

كان أجدادنا الشاميون المتمسكون بالسنة ، إذا دخلوا تبوك أخذوا (كما زعم ابن بطوطة) أسلحتهم ، وجردوا سيوفهم ، وحملوا على النزل ، وضربوا النخيل بسيوفهم ... يقولون هكذا دخلها رسول الله[1]

ولو كان أجدادنا (أعقل) من ذلك ، لضربوا بسيوف كسيوف خطباء المنابر فى مصر ، التى وصفها الإمام الرافعى رحمه الله فى تلك المقالة (المسّاعة) ، لتكون آية أخرى على أنهم يفهمون (السنة ...) كفهم الشيخ الدمشقى الذى خرج مرة من باب الجامع يمشى فى الأسواق حافياً ومن ورائه تلامذته يحملون نعالهم بأيديهم، نشراً للسنة ... وكفهم كثير من المسلمين اليوم!

أما نحن فلم نكن قد تعلمنا هذه البطولة (الدنكشوتية) ، فدخلنا تبوك كما يدخل عامة إخواننا من بنى آدم بلداً من البلدان ولم نضرب النخل البرىء بسيف أبى حية النميرى الذى أخذه من وزارة أوقاف مصر لما ولى الخطابة فى مساجدها ، وإنما ضربنا بأكفنا فى قصاع الرز واللحم التى كان يكرمنا بها أمير البلد . ولبثنا فى تبوك يومين أنسنا فى اليوم الأول واطمأننا وتفيأنا ظلال الأمن والدعة ، بعد ما صلينا بشمس الصحراء أياماً ! كتوينا فيها بنار الجوع والعطش والخوف والتعب فأحببنا تبوك، وتمنينا لو أقمنا فيها الدهر فما فارقناها ، وعشنا فى كنف أميرها المهذب الكريم العمر كله ... ننعم بيمن نقيبته ، ونور طلعته ، وخصب مائدته ... ولكنه لم يأت اليوم الثانى حتى مللناها ، ورأيناها من ضيقها آخذة بخناقنا . وقال قائلنا : أهذه هى تبوك التى طالما شوقنا إليها الدليل ، وطالما منانا الوصول إليها ، وحط الرحال بفنائها ؟ أمن أجل هذه القرية ذات الستين بيتاً حملنا ما حملنا من الأين والعناء ... ؟

لقد جلنا أنحاء (البلدة ...) ورأينا نخيلها الذى كان يقطعه أجدادنا الأبطال بأسيافهم ! ! فلم يبقوا منه إلا بمقدار بستان صغير من بساتين البصرة ! وزرنا قصر الأمير المبنى بالآجر المطلى بالطين ، ودخلنا المسجد الذى فرش بالرمل ، حتى ليغوص فيه أنف الساجد ويدخل فى خياشيمه ، ووقفنا على المحطة الخالية الخاوية ، فبكينا فيها (السكة) التى أنشأناها بأموالنا ، ثم خربناها بأيدينا وأيدى القوم الذين أثاروها بيننا جاهلية جهلاء ، فكان لهم ثمارها، وكان أن حرقتنا نارها ... رأينا ذلك كله فما ثواؤنا فى تبوك ، وعلام نقيم فيها ؟ ألنأكل على مائدة الأمير، ونثقل عليه ؟

وتهيأنا للرحيل ، لنقطع النصف الثانى من الطريق ، وهو النصف الصعب المتعب ، الذى وصف ابن بطوطة ومن كان قبله ومن جاء بعده صعوبته وهوله ... وسرنا متوكلين على الله .

***

قال ابن بطوطة :

« يرحل الركب من تبوك ويجدون السير ليلاً ونهاراً خوفاً من هذه البرية وفى وسطها الوادى الأخيضر كأنه وادى جهنم أعاذنا الله منها ، وأصاب الحجاج به فى بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التى تهب ، فانتشفت المياه وانتهت شربة الماء إلى ألف دينار ومات مشتريها وبائعها . وكتب ذلك فى بعض صخر الوادى ومن هناك ينزلون بركة المعظم وهى ضخمة نسبتها إلى الملك المعظم من أولاد أيوب، ويجتمع بها ماء المطر وربما جف فى بعض السنين »

أما نحن فلم نخش هذه البرية خشية البطوطى ، بل وجدناها هينة بالنسبة لما مر علينا قبل تبوك ، ولم نعرف شدتها وقسوتها حتى ضربنا فيها أياماً ؛ فأدركنا أن ابن بطوطة كان صادقاً

ولقد كنا خرجنا من دمشق بشىء عظيم من الزاد ، وبعانى صفيحة من البنزين ، فنفد كله قبل تبوك فجددناه فيها ، وحملنا ما استطعنا حمله من الماء ، وصحبنا دليلاً جديداً (اسمه محمد الأعرج) طويلاً نحيفاً شيطاناً من شياطين البادية ، خبرونا أن له عند الإمام عبد العزيز منزلة دانية ، وودعنا دليلنا الثانى صلبى الذى حدثتك عنه من قبل

ومن أغرب ما شاهدت فى هذه الرحلة ، أنه لما اجتمع الدليلان ، وكلاهما شيخ قبيلته ، طفقا يذكران الماضى ،

(١) لا أصل لذلك فى السنة .

ويستعيدا أخباره . ففهمنا أنهما كانا عدوين يتقاتلان ويتنازيان ؛ فلما تدينا (أى تبع الشيخ ابن عبد الوهاب مصلح الجزيرة) نبذا ذلك كله ، وتمسكا بالأخوة الإسلامية ، وألف الله بين قلوبهم بالإسلام كما ألف بين أجدادهم عرب الجاهلية ، فرحم الله ابن عبد الوهاب ورضى عنه وعن كل قائم لله بحجة ، داع إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة ، آمر بالمعروف ناه عن المنكر ، ناصر للسنة قامع للبدعة

ومشينا فخرجنا من تبوك سبعين كيلاً لم نجد فيها ما نتحدث عنه ، أو نشكو منه ، فقد كانت الأرض متماسكة شديدة درجت عليها السيارة بسهولة ، وكل ما وجدنا فيها من الصعاب ثلاثة شعاب رملية لا يتجاوز عرض الواحد منها كيلاً ونصف كيل ، ورياح شديدة خبرنا الدليل أنها لا تكاد تنقطع من ذلك المكان ، ثم بلغنا أوائل الجبال ، فدخلنا وادياً متسعاً فيه تلال من الرمال ، فلم نسر فيه إلا قليلاً حتى كثرت فيه الصخور ، وازداد ارتفاع الجبال من حولنا ، وكانت الصخور هرمة بالية مؤلفة من صحائف رقيقة كصحائف الكتاب ، تتفتت من مس الأيدى ، والوادى ممتلٍ بفتاتها ، ثم ظهرت فى الوادى تلال من الرمل الأحمر الناعم المتموج ، لها منظر أخاذ . واستمرت هذه المشاهد من حولنا مسيرة ثلاثين كيلاً ، ثم عرضت لنا جبال فيها الصخر الأسود تخالطه بقع حمراء ، ووصلنا بعدها إلى أرض مستوية تشبه (بسيطة) التى مررنا عليها قبل أن نصل إلى جبال الطبيق فى طريقنا إلى تبوك ... ثم أمسى علينا المساء فى بقعة اسمها (ساح النزوان) فبتنا فيها ، وبينها وبين تبوك (١٤٤) كيلاً ، سجلها راقم السيارة (الكيلو متراج) ومعنى (ساح النزوان) عندهم ميدان المعركة

نزلنا نشهد الشمس وهى تجر ذيلها الذهبي على الوهاد والنجاد ثم تتوارى وراء الأفق البعيد ، فجلسنا نمتع الطرف بمحاسن المساء فى الصحراء ونريح النفس إلى سكونها وصفائها حتى إذا لف الكون الظلام أوقدنا النار وأشعلنا المصابيح وفرشنا الفرش ، وكنا فى أول الرحلة ننصب سرادقاً نبيت فيه فصرنا ننام تحت السماء بين أحدنا والآخر أكثر من عشرين متراً لا نخاف وحشاً ولا نخشى لصاً ، فقد أمن الله الجزيرة بابن السعود حتى صار أمنها حديث الناس ، وانعقد عليه إجماع من أم الحجاز أو جال فى بواديها ، ولقد ترك أصحابنا التجار (وقد كانوا يسيرون على أثرنا بيننا وبينهم مسيرة ثلاث) سيارة مترعة بالثياب والطعام وكل ما يرغب فيه البدوى ، ويسيل لتصوره لعابه ، ورجعوا إليها بعد شهر فما وجدوا شمرة منها أزيحت عن مكانها على كثرة من مر بها من الأعراب !

وما أذكر أننا خفنا أو ارتعنا إلا ليلة واحدة نزلنا فيها على طرف واد ، وكانت ليلة حالكة السواد فما شعرت إلا الدليل محمداً الأعرج يجر بيدى ، فتبعته حتى ابتعدنا عن الرفقة ، فأشار إلى جهة رأيت فيها كمثل المصباحين ، فارتعت ودنوت منه فقلت : ما هذا ؟ فقال وهو غير مكترث ولا مبال : هذا نمر ! فنظرت إليه فإذا هو ساكن الطائر ، هادئ الجوارح كأنه حين يقول نمر يقول كلب أو قط ، ولم أكن رأيت نمراً من قبل إلا فى حديقة الجيزة بالقاهرة . نخفت والله وشعرت من الفزع كأن المقال طار عن رأسى ورجع ، وما أنا بالجبان ولا الرعديد ، ولقد عرضت لى الضبع مرة ، فما رأيت فيها كبير شىء ، ولكن النمر فى البادية فى الليل لا يرى منه إلا عينان كأنهما جمرتان ؛ لا ، إن هذا مخيف !

أما الأعرج فما كان منه إلا أن مد بندقيته وأطلق رصاصها على عينى النمر فأخطأها وانتقل ضوؤها المرعب إلى جهة أخرى ؛ فعاد فأطلق ناره فأخطأه ، وابتعد النمر ... فالتفت الأعرج ليعود فقلت : ويلك ماذا تصنع ؟ فقال : وماذا تريد أن أصنع ؟ لقد ذهب ؛ قلت : أفلا أوقظ الركب ؟ قال : لا ، بل نم أنت أيضاً . وتركنى الخبيث وذهب فنام وأنا أسمع غطيطه ؛ ومرت على ليلة وأين منها ليلة النابغة ؟ كاد يقتلنى النعاس ، وكلما غفوت توهمت النمر يحملنى بين أسنانه كما تحمل الهرة الفأرة ، فأفيق مضطرباً أنظر حوالى وأنا أتعوذ حتى طلع الفجر وما أدرى كيف طلع !

هذه هى ليلة الخوف عندى ، فمن سخر من خوفى فأنا أسأل الله أن يريه نمراً فى المنام لا فى اليقظة لينظر ماذا يكون من أمره .

قمنا — على عادتنا — فى الغلس فشهدنا طلوع الفجر ونحن نعد الطعام ونتهيأ للرحيل ، ولقد كنا نسمع بالفجر سماعاً ونقرأ صفته فى الكتب ، ونعلم أن فى الدنيا فجراً كاذباً وفجراً صادقاً ، ولكنا لم نره عياناً ونعرف صادقه وكاذبه إلا فى الصحراء ؛ وتركنا ساح

النزوان قبل أن تظل الشمس على الدنيا متوجهين إلى الجنوب . فلم نسر إلا قليلاً حتى كثرت من حولنا الهضاب ، فكنا نوالى الصعود والهبوط ، واستمر ذلك نحو تسعة أكيال ، ثم انقطعت الهضاب وابتدأت القور وهى كالأكم ولكنها مؤلفة من الصخر الأسود ، وربما كانت القارة صخرة واحدة عظيمة أشبه شيء بالمخروط الناقص (عند أهل الهندسة) ، وكانت هذه القور صخوراً مطبقة هرمية كالتى وصفنا آنفاً ، فكنا ندور بالسيارات فيما بينها ونمشى خلالها ، وامتدت بنا ستة أكيال ، ثم انتهينا إلى سهل مبسوط كالكف سرنا فيه كيلين ، ثم عادت الهضاب والقور تتخللها أراض منبسطة وامتد بنا ذلك عشرة أكيال ، ثم عرضت لنا حجارة كبيرة ملأت الأرض ولقيت منها السيارات شدة وبلاء ، ثم أخذنا بالصعود ، نرتقى سفوحاً وعرة صعبة ، إلى أن غبنا بين جبلين عاليين صخرهما من ذلك الصخر المطبّق الهرم الذى يتفتت ، فسرنا خمسة أكيال فانتهينا إلى بقعة قال الدليل إنها ملتقى طريق الجوف (أى دومة الجندل) بطريق المدينة

خلفنا طريق الدومة عن شمائلنا ووالينا الصعود خمسة وثلاثين كيلاً أخرى ، للتقينا بعدها بالخط الحديدى ، ووقفنا قبالة محطة صنعاء ، وهى قائمة وحدها فى البادية ، قد نزعت منها أبوابها وشبابيكها ولم يبق منها إلا جدرانها ماثلة تستبكى من كان له قلب ، وكان فى قلبه إيمان . . . وماذا لعمرى يجدى البكاء ؟

(لها بقايا) علي الطنطاوى

وزارة المعارف العمومية

ادارة السكرتارية

اعلان

تعلن حكومة العراق عن حاجتها للمدرسين الآتى بيانهم :

(ا) أساتذة لدار المعلمين العالية

أستاذ واحد للغة العربية	المرتب	٥٠	دينارا
أستاذ واحد للكيمياء	»	٤٠	»
أستاذ واحد للفزياء (الطبيعة)	»	٤٠	»
أستاذ واحد للرياضيات	»	٤٥	»

(ب) مدرسون ومدرسات للتعليم الثانوى :

عدد ١٢	مدرسا ومدرستان للغة العربية	تتراوح مرتباتهم بين ١٥ و٣٠ دينارا
» ٤	مدرسون للغة الانجليزية	
» ٤	مدرسون للطبيعيات العامة (فزياء وكيمياء وتاريخ طبيعى)	
» ٩	مدرسون ومدرسة واحدة للرياضيات	
» ١	مدرس واحد للفزياء (اختصاصى)	
» ١	مدرس واحد لتربية الدواجن	
» ١	مدرسة واحدة للرياضة البدنية والأناشيد	

والمجموع ٣١ مدرسا و ٤ مدرسات

و يشترط فى المتقدمين لهذه الوظائف أن يكونوا من حملة الشهادات العالية (دبلوم دار العلوم ـ والمعلمين العليا ـ وليسانس كلية الآداب ـ و بكالوريوس كليات جامعة فؤاد الأول فى العلوم والهندسة والزراعة والتجارة والطب البيطرى ومعاهد التربية للمعلمين والمعلمات) . ويفضل من تكون لهم خبرة فى التعليم لا تقل عن ثلاث سنوات

وتقدم الطلبات فى مدى أسبوع من تاريخ نشر هذا الاعلان باسم سعادة وكيل وزارة المعارف المساعد حيث تتخذ الاجراءات للترشيح . ٧٢١٦